مراجعات في الكتب

مراجعات في الكتب

حول الموشحات العبرية في القرون الوسطى

טובה רוזן-מוקד
לאזור שיר: על שירת-האזור העברית בימי-הביניים,
הוצאת הספרים של אוניברסיטת חיפה, חיפה תשמ"ה (1985). 245 עמודים עם הקדמה, לוח קיצורים של הביבליוגרפיה, מפתח שמות.

من المعروف أن الشعر العبري في عصره الذهبي، أي الشعر الذي نظمه الشعراء اليهود الأندلسيون في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، كان قد استعار الأشكال المتعددة والطريفة للموشحات الأندلسية العربية مستخدما إياها في نوعيه الديني والدنيوي على حد سواء. وقد سبق لهذا الشعر أن تبنى كذلك الشكل التقليدي للشعر العربي، فنظم الشعراء القصائد الطوال على البحور العربية مستخدمين القافية الموحدة في نهاية الأبيات التي تنقسم الى شطرين شبه متساويين، كما هو الأمر في الشعر العربي. وقد خلف كبار الشعراء مثل موشي بن عزرا ويهودا هليفي وابراهام بن عزرا وغيرهم عددا كبيرا من الموشحات العبرية يربو على ما تبقى من الموشحات العربية التي ضاع أكثرها. ولا تزال هذه الموشحات، عدا عن كونها مستودعا للتراث اليهودي في أزهى عصوره، موضع اهتمام الباحثين من حيث نشأتها وتطورها، ومن حيث علاقتها بالموشحات العربية التي سبقتها وأمدتها بالحيوية، وبالشعر الغنائي الأوروبي في عصور ما قبل النهضة. ومما يثير الاستغراب أن المكتبة العبرية كانت الى الآونة الأخيرة تفتقر الى كتاب كامل وشامل

يبحث في ظهور هذه الموشحات العبرية وتاريخها، و يتعرض الى معالجة مبانيها وأوزانها وقوافيها ولغة خرجاتها التي كتب بعضها بالعربية او باللهجات الرومانية الدارجة في اسبانيا، بالاضافة طبعا الى اللغة العبرية ذاتها.

وأخيرا جاء كتاب طوبه موكيد المحاضرة في جامعة حيفا ليسد هذه الثغرة. والكتاب الذي نحن بصدده هو ثمرة ناضجة لجهود متواصلة استمرت سنوات عديدة قامت خلالها المؤلفة بتقصي جميع نواحي هذا الموضوع الواسع. فتسنّى لها أن تضع في يد القراء كتابا سوف يكون مرجعاً هاما من مراجع الأدب العربي في القرون الوسيطة، وفي الأندلس بوجه خاص، كما سيلجأ اليه كل من يهتم باللقاء الثقافي المثمر بين سكان الأندلس، مسلمين و يهودا ومسيحيين.

و يتضمن الكتاب خمسة عشر فصلا يتركز بعضها على دراسة الموشح العبري بصورة خاصة، بينما يتعرض بعضها الآخر الى مواضيع مرتبطة عديدة تتعلق بالموشحات والأزجال العربية ايضا. وقد أشارت المؤلفة بأنها تهتم بصورة خاصة بالعلاقة المتبادلة بين القوالب الشكلية المتعددة ومضامين الموشحات التي تنتمي الى أنواع الشعر العبري الدنيوي، خلافا للموشحات الدينية التي تحتاج الى دراسة مستفيضة خاصة. ومن الجدير بالذكر أن المؤلفة موكيد كانت قد بدأت المرحلة الأولى من دراستها للموشحات منذ أمد بعيد، عندما كان يوجهها و يرشدها في ذلك الأستاذ الراحل صموئيل شتيرن الذي أدهش الأوساط العلمية باكتشافاته الباهرة في مجال الخرجات الرومانية في الموشحات العربية والعبرية، والذي توفي عام ١٩٦٩. وليس في وسعنا أن نقدم عرضا نقديا شاملا لمحتويات كتابها لنعرّف القارىء على ما بذلته موكيد من جهود في معالجتها للموضوع من جميع جوانبه، و بصورة واسعة وعميقة، وانما نكتفي ببعض النواحي التي تتصل بالموشح العربي الأندلسي اتصالا وثيقا.

لقد أجادت الباحثة في معالجتها لموضوع أوزان الموشحات، العربية والعبرية كذلك (ص ٣٣ - ٥٦)، عندما أكدت على أن الموشحات، بصورة عامة، حافظت على مبدأ الوزن الكمّي الذي يعتمد على الفرق الايقاعي بين الأوتاد والأسباب، وإن كانت تنحرف من عدة نواحٍ عن البحور الخليلية بأشكالها الكلاسيكية المتبلورة الثابتة، مثل استخدام الأبيات ذات الشطر الواحد او تقسيم الشطر الى عدة فقرات بواسطة اللجوء الى القوافي الداخلية، ومثل استخدام تشكيلات جديدة من التفاعيل الكمية بحيث تكاد القوالب الوزنية المتأتية تكون لا متناهية في عددها. وبعبارة أخرى، وصفت موكيد أوزان

الموشحات بأنها على الأغلب كميّة ولكنها ليست كلاسيكية، وتساءلت فيما اذا كانت هذه الأوزان تمثل مرحلة من مراحل التطور الداخلي للوزن الكمّي الكلاسيكي، ام أنها تعبر عن مفهوم ثوري جديد يناقض أصول النظم التقليدي. ثم عرضت آراء النقاد والباحثين القدامى والعصريين حول هذا الموضوع. و يبدو لنا أن مساهمة المؤلفة في هذا المجال تتمحور في دراستها لأوزان موشحات الشاعر يهودا هليفي الذي نظم أغلب موشحاته - كما يظهر من تحليل المؤلفة - حسب العروض الكمّي (العربي)، بينما ينحصر عدد الموشحات التي تقوم أوزانها على تساوي عدد المقاطع فقط في ٤ موشحات من مجموع ٤٣ (ص ٥٠). وقد استعانت موكيد كثيرا بكتاب صموئيل شتيرن عن الموشحات الأندلسية العربية في مجالات كثيرة[١]، أحدها استعراض الآراء المختلفة حول نشأة الموشح والزجل ومصدرهما ومدى تأثيرهما على الشعر الغنائي البروفنسالي اللاحق (الفصل الثامن، ص ٩٠ فما بعد).

وحبذا لو أكثرت المؤلف، خصوصا عند معالجة خصائص الموشح العربي، من اللجوء الى المصادر العربية القديمة مباشرة. هذا هو الأمر بالنسبة الى **دار الطراز** لابن سناء الملك، فالباحثة قد تجاهلت ما بين وصفه لمبنى الأقفال ومبنى الأبيات (أو الأسماط والأغصان) من فروق أساسية[٢]. ونحن نجدها تعتمد على غرسية غومث الباحث الاسباني في اقتباسه وشرحه للفقرة الشهيرة من كتاب **الذخيرة** لابن بسام (ص ٣٨). فلو لجأت موكيد الى هذين الكتابين مباشرة وقرأتها برو ية وعمق لما سارت وراء الذين يدعون أن في نص هذين الكتابين ما يؤيد بصورة قاطعة فكرة كون أوزان الموشحات من أصل غير عربي. والغريب أنها تغفل ما ورد أصلا في مستهل الفقرة المنقولة عن ابن بسام من أن أول من وضع الموشحات - اي القبري الضرير - كان قد نظمها حسب أوزان الشعر العربي، الأمر الذي ينسف نظرية «المصدر الأجنبي» من أساسها (راجع ص ١٨ من كتاب موكيد). ولقد فاتها أن ابن بسام، حين يدعي في نهاية تلك الفقرة أن أوزان الموشحات خارجة عن أوزان الشعر (ص ٣٨)، ربما يقصد أنها لا تتمشى حرفيا مع

---

١ S. M. Stern, *Hispano — Arabic Strophic Poetry,* Oxford 1974.

٢ أنظر بهذا الخصوص مقالنا «ملاحظات حول مبنى الموشح» المنشور في **الكرمل**، العدد ٦ (١٩٨٥)، ص ١٤٧ - ١٦٣.

الأوزان الخليلية لأنها تتلاعب بالأشطر وتغير القوافي وتجمع بين تفاعيل لا تجتمع في الشعر التقليدي. وشتان ما بين هذا الموقف الذي نتوقعه من مؤرخ محافظ كابن بسام، وبين الادعاء بأن أوزان الموشحات مقطعية رومانية.

وتعرّضت الباحثة الى قوافي الموشحات في فصل خاص من كتابها (ص ٢٤ - ٣٢). ان تحليل المباني الشائعة للقوافي في أجزاء الموشح المختلفة، عدا عن أهميته من الناحية الشكلية، هو موضوع ذو خطورة كبيرة، فانه قد يؤدي - كما سنرى - الى استخلاص نتائج - صحيحة او غير صحيحة - حول نشأة الموشح كفن شعري والمصادر التي استقى عنها. فمن خلال دراسة موكيد وتبوبيها لأنواع القوافي في الموشحات العبرية توصلت المؤلفة الى بعض النتائج التي يمكن تلخيصها فيما يلي. ان القصائد العبرية التقليدية تستخدم نوعين من القوافي، هما مقطع مفتوح، اي حرف صامت تليه حركة (cv)، او مقطع مغلق متكون من حرف صامت وحركة ثم حرف صامت نهائي (cvc)، بينما يستخدم الموشح العبري بالاضافة الى هذين النوعين نوعاً آخر من القافية هو أصغر من مقطع كامل، لأنه يتركب من حرف صامت نهائي والحركة التي تسبقه (xvc) بدون تكرار الحرف الصامت الذي يسبق الحركة. وهذا النوع الجديد من القافيه - كما تقول المؤلفة - يكثر في أسماط (أقفال) الموشحات العبرية ولا يرد في الأغصان (الأبيات) ما عدا الموشحات المتأخرة التي قد تستخدم هذا النوع في أغصانها ايضا. وتستبعد موكيد أن يكون هذا مجرد محاكاة للموشحات العربية، وتبني موقفها هذا على ملاحظة ذات شقين:

١- هذا النوع من القافية (xvc) نادر كذلك في الشعر العربي التقليدي.
٢- يتواجد هذا النوع في أسماط الموشحات العربية وليس في أغصانها.

ونحن نقول: لو كانت هذه الملاحظة صحيحة في أساسها، لتمكّن الباحث من أن يستنتج - كما تلمّح موكيد نفسها - أن ندرة وجود قافية من نوع معين في الشعر التقليدي، وتواجدها في أسماط الموشحات دون أغصانها، قد يدلاّن على أن هذه الموشحات ربما نشأت عن تقليد خرجة رومانية، لأن هذه القافية شائعة في الشعر الروماني، بل في الشعر الأوروبي كله. والمعروف أن الأسماط انما تتبع الخرجة في مبناها وأوزانها وقوافيها. وهكذا تميل المؤلفة الى الأخذ بنظرية المصدر الأجنبي للموشح الأندلسي لأنها وجدت في نوعية القوافي ما يقوي هذه النظرية. ولكن، بعد أن عرضنا موقف المؤلفة لا بد من القول بأن الملاحظة السابقة التي استندَتْ عليها، بكلا شقيها، تفتقر الى الدقة، وذلك لأن هذا النوع من القافية معروف في الشعر العربي القديم وقد سماها العلماء

بالقافية المقيدة لأنها تنتهي بحرف ساكن. ولم يكرر الشاعر العربي القديم الحرف الذي يسبق الحرف الأخير وانما كرّر حركته فقط. وممّا يثير الدهشة أن أكثر القصائد الجاهلية المنظومة على وزن الرمل انما تستخدم مثل هذه القوافي. ومن ناحية أخرى، لم ترد هذه القافية في أسماط الموشحات العربية دون أغصانها كما تدعي المؤلفة، وانما وردت كذلك في أغصان الكثير من الموشحات. ولو اكتفينا بفحص الموشحات الأندلسية التي أثبتها ابن سناء الملك وحدها لوجدنا أن ثمانية موشحات من مجموع اثنين وثلاثين تستخدم قوافي مقيدة في أغصانها، وهي الموشحات ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٤، ١٨، ١٩، ٢٠. وهكذا يتضح أنه ليس في دراسة القوافي ما يدعم نظرية «المصدر الأجنبي».

ومن بين المواضيع الشيقة التي عالجتها مؤلفة الكتاب بكفاءة بالغة علاقة الموشحات بالغناء، وهو موضوع لم يحظ بالكثير من العناية لدى الدارسين. وقد تطرقت موكيد الى وصف طريقة الأداء من قبل المغنين وموقف الجوقة وجمهور المستمعين، وعرضت ما يمكن أن يكون لذلك من علاقة بمبنى الموشحات. وبخصوص الزجل، الذي يكون طول سمطه نصف طول مطلعه، يشترك الجمهور في الغناء مكررا الجزء الأخير من المطلع بعد أن ينتهي المغني من أداء كل بيت وبيت. ولا نوافق المؤلفة على قولها بأن الأزجال، عدا بعض الشواذ، منظومة حسب أوزان مقطعية صرفة، إلا أن هذا موضوع لا ننوي مناقشته في هذا المجال.

وأخيرا، نعود لنؤكد مرة أخرى أن الكتاب الذي قمنا بعرض قسم معين من مواضيعه يقدّم دراسة شاملة ذات قيمة كبيرة تساهم في فهم التطورات الأدبية والثقافية على أرض الأندلس.

دافيد صيمح